الفصل التاسع عشر
الخدمة بحكمة في الشرق الأوسط
الخدمة المسيحية تحت الضغوط

بقلم :
ناجي أبي هاشم ، أنيكي كومبانجين

إن فهم الهيئة الاجتماعية والتاريخية للشرق الأوسط، جنباً إلى جنب مع القيم الثقافية والدينية، هو مفتاح العمل بفاعلية في هذا الجانب. إن الرعاة والمُرسلين والمسيحيين الوطنيين يجب أن يعيشوا بحكمة وطهارة وهم يعملون على جعل نور المسيح يسطع، في كثير من الأحيان في وسط الضغوط العنيفة. إنهم يواجهون صراعات خطيرة، وفي بعض الأحيان قد يجتازون في الألم والاضطهاد، حسب سياق الأحداث. يكتب ناجي الجزء الأول من هذا الفصل وتكتب أنيكي الجزء الثاني.

الشرق الأوسط منطقة شاسعة ومترامية الأطراف في العالم. شعبها ودود ومضياف وفي معظم الأماكن تُعد الحياة جميلة وسهلة، وذات مغزى، وهادئة. ولكن في مناطق مضطربة أخرى، تتميز الحياة بالتوتر، والضغوط، والصراعات، والعداوة. يوجد بالمنطقة تشكيلة واسعة من الثقافات الفرعية، والأعراف، والتقاليد، والعادات. إنه مكان تلتقي فيه الحضارات القديمة بنُظم الحياة العصرية. يصلح الشرق الأوسط كبوابة على ثلاث قارات كبرى. مازال شعبها ثابت الجذور في الأرض، حيث يقدسون تقاليدهم، وقِيمهم، ومعتقداتهم، وثقافاتهم.

يتقابل معظم أهل الحضر جيداً مع نظام الحياة الغربي الحديث دون أن يفقدوا تراثهم الثقافي أو هويتهم الدينية. يلتقي العاملون المسيحيون في الشرق الأوسط بالعديد من المكافآت والأفراح. وفي نفس الوقت يواجهون تحديات وصراعات خطيرة. بناءً على المواقف والموقع فإن الخدمة المسيحية محدودة تشكلها الظروف المحيطة، والتقاليد، والثقافات الفرعية، والأعراف الاجتماعية والمناخ السياسي.

حالياً، فإن الوجود المسيحي في أقطار عديدة في الشرق الأوسط يقل ويضعف. ولسوء الحظ، فبعد دخولنا الألفية الثالثة بعد الميلاد، فإن المجتمعات المسيحية تقل في العدد، وفي التواجد، وفي التأثير في بعض المناطق، يحدث اضطهاد خطير. هذه علامات مزعجة. إن العديد من قادة الكنائس، في الشرق وفي الغرب، قلقون بشدة بسبب هذه التطورات الجديدة.

إن العديد من المناطق، والمجتمعات، والمدن التي كانت مسيحية في الأصل في الماضي القريب، تفقد أرضيتها بالتدريج وتصبح مختلطة بنسبة متساوية أو تصبح النسبة السائدة للسكان من غير المسيحيين (معظمهم مسلمون). توجد أسباب عديدة لهذه الظاهرة الحالية، بما في ذلك التوتر السياسي، والصعوبة الاقتصادية، والقلاقل المدنية، والاضطهاد الديني.

كل هذه العوامل تسبب الهجرة بأعداد كبيرة، خاصة بالنسبة لأولئك الذين لديهم القدرة على الرحيل. الهجرة نسبتها عالية وسط الشباب والمتعلمين، خاصة أولئك الذين من مجتمعات غير محظوظة وأقل ثباتاً.

العائلات المسيحية عددها أقل تقليدياً، والعديد من الشباب يفضلون البقاء في حالة العزوبية، وهذا مقبول بشكل أكبر قليلاً في إطار المجتمعات المسيحية وفي البيئات المتحضرة عنه في الأماكن الأخرى. بالإضافة لذلك، يوجد عشرات الكهنة الشبان والراهبات الذين يكرِّسون ذواتهم للتبتل والحياة الكنسية (مما يعني دُرية أقل).

ولذا فإن المجتمع المسيحي والوجود المسيحي في الشرق الأوسط ينكمش! إن وطني (ناجي)، لبنان، على سبيل المثال، كان في الأصل دولة مسيحية، به حوالي 85 % من المسيحيين والباقي خليط من الدروز والمسلمين. الآن فإن المجتمع المسيحي يصل تعداده حوالي 35 % وهو ينكمش.

لبنان قديم مثل عصور الكتاب المقدس. لقد كان ذات مرة مرفهاً وناجحاً ونموذجاً للتعايش المشترك. لقد كان مكاناً حيث كانت الثقافة، والتعليم، والعرقية، والديانة، والحضارة، والإغراء السياسي تلتقي معاً وتكون جمهورية ديمقراطية ناجحة، مُعلنة التناغم المتوازن، والاندماج الصحي كانت الدولة مضيافة وحرة، وحديثة في الأداء، ومنفتحة على الشرق والغرب، والمجتمع الدولي. حالياً بها تشكيلة عريضة من الثقافات الفرعية، والطبقات الاجتماعية والاقتصادية، والتقاليد. عدد سكانها يبلغ 3.5 مليون، مع 13 مليون لبناني آخر من كل الأجيال يعيشون خارج البلاد.

حيث أن لبنان تعكس صورة مصغرة للشرق الأوسط والبوابة للعالمين العربي والأوروبي، فإن معظم المذاهب الدينية والثقافات الفرعية ممثلة فيها بقدر ما. إن الكنائس المارونية والكاثوليكية والأرثوذكسية، والشرقية كلها قوية. البروتساتنت أقلية. اليهود موجودون في العديد من المدن. ولكن منذ بداية الدوامة السياسية، هاجر أغلبية اليهود على مضض من لبنان والدول المجاورة، تاركين وراءهم بيوتهم، وتراثهم العربي، ومجامعهم الدينية.

الشيعة هم أكبر الطوائف الإسلامية. ومع ذلك، أقل رسوخاً اجتماعياً واقتصادياً من السُنَّة. مازالت طريقة الحياة العربية والشرق أوسطية متبعة في القرى والمناطق الشعبية في الجبال، والوديان والصحارى ـ وهي أقل في لبنان الآن وأكثر في الدول المجاورة.

كل هذه القوى المُحركة، جنباً إلى جنب مع التغييرات السريعة في الشرق الأوسط، تؤثر على الكنائس المحلية والعمل المُرسلي. إن الكنائس من كل الأطياف تناضل للتكيف، وفي بعض الأحيان، تعيد التكيف مراراً وتكراراً مع التطورات الجديدة والاحتياجات الطارئة، والكنائس عليها التكيف بسرعة مع أنظمة الحكم الجديدة، في النظم السياسية، والاتجاهات الاجتماعية، والحقائق الدينية. فعليها أن تغيِّر الطرق، وتبدِّل الأماكن، وتطبق لافتات جديدة، وتدافع عن خدماتها بحذر وألا تتوقف تماماً عن أنشطتها. في بعض الأحيان، عليها أن تجلس وتنتظر بصبر حتى يهدأ الغبار بعد كل بلبلة. في المناطق الحساسة والمتغيرة في الشرق الأوسط، لا شيء يؤخذ على أنه قضية مُسلَّم بها.

تاريخياً، كان الشرق الأوسط مسقط رأس معظم الحضارات والديانات. توجد العديد من الطوائف في العالم العربي متطرفة دينياً (غيورة على الإسلام كالديانة الصحيحة الوحيدة) وغاضبة سياسياً (بسبب غزو الاستعمار والثقافة الغربية وأيضاً بسبب وجود إسرائيل وتصرفاتها في المنطقة). إن بعض الأفراد، إن بعض الأفراد على استعداد للقتال في أي مكان باستخدام أية وسيلة لتنفيذ مخططاتهم، والبعض الآخر يقبل مالاً أو يتم غسل ذهنه ليفعل ذلك، كما هو الحال في أي بقعة مضطربة في العالم. ولكن أغلبية الشعب العربي ودود، ومعتدل، ومسالم، ويخشى الله، ومضياف.

مع أن المسيحيين يضعف تأثيرهم سياسياً ومالياً في معظم مناطق الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، إلا أنهم ينمون روحياً. يبدو أن هناك نوعاً من التجديد والعودة إلى ينابيع الإيمان والكنائس المسيحية. يوجد إحساس جديد بالتعاون والصداقة الحميمة بين الجماعات المسيحية، لقد كان الحال هكذا دائماً عبر التاريخ عندما كان المؤمنون يواجهون الضغوط، والمقاومة، أو الاضطهاد. على الكنائس أن تتحد وتُعبِّئ جهودها وطاقاتها، لكي تواجه التحديات وتصل إلى المحتاجين.

إن الأحوال غير الملائمة تجمع المسيحيين بالتدريج معاً. وتقوي إيمانهم وشهادتهم وخدمتهم. هذا هو الموقف الحالي في الشرق الأوسط، وهذا هو المكان الذي يحاول مئات الرعاة والمُرسلين أن يخدموا، ويستجيبوا للأحوال الدائمة التغيير، ويقدمون الرعاية، ويحافظون على وجودهم، وفي بعض الأحيان، يبقون على قيد الحياة فقط في مناخ لا يمكن التنبؤ بما يحدث فيه وتحت ظروف غير مواتية.

مفاهيم خاطئة شائعة

يوجد الكثير من سوء الفهم والمفاهيم الخاطئة فيما يتعلق بالعالم العربي والشرق الأوسط عموماً، خاصة في الفكر ووسائل الإعلام الغربية. إن هذه الأفكار غالباً تتخذ شكل الانطباعات غير الصحيحة والمقولات الاقتصادية التي يمكن أن تكون مضللة جداً، في بعض الأحيان، وخطيرة (أبي هاشم 1992). إنها بحاجة لتصحيح، خاصة في عقول المسيحيين الغربيين المهتمين بدعم الكنائس والخدمات في الشرق الأوسط.

كل العرب مسلمون

مع أن أغلبية العرب مسلمون، إلا أنه توجد مجتمعات مسيحية لا بأس بها في المنطقة، في بعض البلاد أكثر من الأخرى. إن مؤرخي الشرق الأوسط قد وثَّقوا وجود المسيحية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. لقد انتشر مرسلو الكنيسة الأولى واتجهوا شرقاً من أورشليم إلى الصحارى، ووصلوا إلى جماهير كثيرة من القبائل المحلية والعرب البدو، ثم واصلوا رحلتهم إلى الشرق الأقصى حتى وصلوا إلى أطراف الهند. إن عدداً كبيراً من المسيحيين في بلاد العرب تحولوا إلى الإسلام، إما تحت التهديد المباشر بالغارات الإسلامية المتكررة المقدسة أو عن طريق الضغوط غير المباشرة بأن التحوّل إلى الإسلام ضرورة للبقاء على قيد الحياة. ومنذ ذلك الحين، واصل الإسلام انتشاره ليصبح واحداً من النظم الدينية والسياسية الكبرى في العالم. إنه الآن واحداً من أسرع

الديانات انتشاراً في العالم. إن واضعوا الخطط الاستراتيجية الإسلامية يحشدون البعثات ويبذلون جهوداً كبرى في الدعوة للتبشير بالإسلام في كل من العالم المعاصر/ الغني والدول النامية/ غير المتميزة برسالة القرآن.

إن بعض المسلمين، مثل المسيحيين تماماً، هم كذلك عن طريق القرابة والوراثة فقط. إنهم ليسوا بالضرورة مسلمين ملتزمين أو يؤدون الفرائض بشكل منتظم. ومع ذلك، فإن الارتباط الديني لا يزال جزءاً لا يتجزأ من إحساس الناس بالمجتمع وهو جزء من هويتهم الاجتماعية. في الشرق الأوسط، لا يوجد عادة تفرقة حادة بين الديانة والحكم فكلاهما متضاربان، بالإضافة إلى التراث الثقافي والعادات الاجتماعية. ولذلك فإن الناس والقادة لا يخافون من الالتجاء إلى الله، أو إفساح مكان لعقائدهم أو احترام ممارسات بعضهم البعض وتقاليدهم في السر والعلن، وفي العمل أو في السياسة.

حالياً، أكبر وجود مسيحي في العالم العربي موجود في مصر، على الرغم من أنهم مازالوا يعتبرون أقلية عند مقارنتهم بالعدد الكلي لسكان ذلك البلد. إن هذا الوجود يتمثّل أساساً في الكنيسة القبطية التاريخية، ولكنها لا تزال نشطة، وهي تمثل شكلاً من أشكال الأرثوذكسية الشمال أفريقية.

هناك طوائف مسيحية أساسية أخرى، ومنظمات تابعة للكنائس، وهيئات ومؤسسات أخرى موجودة أيضاً. ولكن مؤخراً، كان معظمها واقعاً تحت ضغوط خطيرة تصل إلى درجة الاضطهاد.

إن نشأة الأصولية الإسلامية والآثار المترتبة على حرب الخليج في سنة 1991 قد غذّى بشدة الحركة المضادة للغرب والمضادة للمسيحية في العالم العربي.

في معظم الدول الإسلامية، فإن التجمعات والأنشطة المسيحية مقيدة الحركة. في الأردن، وسوريا، والعراق، ومصر حيث النظم المعتدلة، فإن للكنائس حرية محدودة حيث أن الدولة تراقبها. وبالاعتماد على النظام الديني في دولة معينة، فإن يوم العبادة للكنائس يكون عادة يوم الجمعة، لأن يوم الأحد يوم عمل عادي. وعلى الوعاظ وقادة الكنائس مراقبة ما يقولون، لأن عناصر من المخابرات يكونون موجودين في أية خدمة أو نشاط كنسي.

في المملكة العربية السعودية، وليبيا، وقطر، واليمن، والبحرين، والمغرب والكويت، حيث نظام الدولة الإسلامي في الأساس، لا يسمح بإقامة مباني كنسية أو لا يوجد سوى القليل منها. وفي بعض الحالات، فإن الاجتماعات المنزلية أو العبادة في القاعات يُسمح بها للأجانب فقط.

إن الاقتراب من أي مواطن محلي بأي شكل من أشكال الكرازة المباشرة أو التحريض ضد القانون يعاقب بشدة. قد يأخذ العقاب شكل صعوبة استخراج إذن بالاجتماع كجماعة دينية أو حتى ترحيل الناس المتورطين في ذلك العمل. في الدول ذات القيود الشديدة، يلتقي المؤمنون الوطنيون سراً لدراسة الكتاب المقدس والصلاة، مع المراقبة الشديدة للأبواب، والنوافذ وخطوط الهاتف.

إن أكثر الدول حرية وديمقراطية في كل المنطقة كانت لبنان حتى العقد الأخير، كانت لبنان معروفة كدولة مسيحية في الشرق الأوسط، لأن أغلبية سكانها كانوا مسيحيين. لقد كانت موطناً للعديد من المنظمات، وكليات اللاهوت، والهيئات ودور النشر المسيحية التي كانت تخدم احتياجات المجتمعات الكنسية في المنطقة. كانت رئاسة الجمهورية ومعظم الوظائف الهامة في الحكومة، والجيش والنظم القضائية في يد شخصيات من المجتمع المسيحي. دول أخرى في المنطقة ملكية، ذات أنظمة شبه ديمقراطية، أو مازالت تحت حكم نظام الحزب الواحد.

كان للبنان خاصية ثقافية متميزة أبعدتها عن الدول الأخرى في الشرق الأوسط. بيروت بوابة استراتيجية ومدينة عالمية منفتحة على الشرق والغرب معاً. ومع أنها جزء من العالم العربي عن طريق الانتساب، والثقافة، واللغة، ومع ذلك فهي أوروبية وغربية بالعديد من الطرق، خاصة في نظام حياتها ونظام تعليمها المتحضر، وانفتاحها على العالم، ونظامها المالي وشئونها الدولية.

كانت كل المجتمعات المسيحية الأخرى في كل العالم العربي تنتظر إلى لبنان للقيادة، والتشجيع، والاتصالات، والدعم الأخلاقي الذي كان يعزز وضعها كأقلية في مجتمعاتها.

على الرغم من أن كل العرب ليسوا مسلمين، لاحظ أيضاً أنه ليس كل المسلمين عرب. إن إندونسيا (أكبر دولة مسلمة)، وإيران، وباكستان، وتركيا والعديد من الدول الأفريقية دول إسلامية دينياً وشرعياً، ولكنها ليست عربية ثقافياً وعرقياً. بالإضافة لذلك، فإن أعداداً كبيرة من السكان في الشرق الأقصى، والاتحاد السوفييتي سابقاً، وحالياً مع الغرب يوجد أيضاً مسلمون.

ليس كل الشرق أوسطيين عرب أيضاً. مع أن إيران دولة شرق أوسطية، إلا أنها ليست عربية بل فارسية. قبرص جزيرة شرق أوسطية، ولكن نصف عدد السكان يونانيون، والنصف الثاني أتراك. إن قبرص محكومة

من قِبَل تركيا، وهي دولة أخرى غير عربية. إن الجزائر ومصر وليبيا وتونس والمغرب دول شمال أفريقية ومع ذلك فهي دول عربية في الغالب وأعضاء في جامعة الدول العربية.

جميع العرب بدائيون

"الصور الأولى التي ترد إلى ذهن الغرب عندما يفكر في العرب هي الرمل والصحراء والجمال وآبار البترول، والرعاع غير المنطقيين... وما شابه ذلك" (P.229, 1960, Hamady).

وهذه مقولة اجتماعية اقتصادية "العالم الغربي يجب أن يدرك أن الجهل بشأن الثقافة العربية والتاريخ ليس "غبطة" بل ضرر على العلاقات الدولية" (P.128, 1990, Hamada).

ينطبق ذلك أيضاً على المسيحيين الغربيين والمرسلين المهتمين باستثمار الجهود في هذا الشأن. لسوء الحظ، فإن العديد من المنظمات والأفراد ذوي النوايا الحسنة يهرولون إلى الحقل المرسلي بدون إعداد كاف أو استشارة مخلصة. إن النتائج تكون عادة وخيمة وسلبية على كل المستويات.

كما هو الحال مع المناطق الكبرى الأخرى، فإن الشعب العربي والدول العربية بها تشكيلة كبيرة من المجتمعات والثقافات الفرعية، والمستويات الاقتصادية، والتقاليد، فعلى أحد جانبي الطيف، توجد نظم الحياة الأقدم والأكثر تقليدية، في القرى، والمدن الصغيرة، وبين البدو. ومن الناحية الأخرى، توجد نظم الحياة المعاصرة والأكثر تعقيداً. وحيث أن المنطقة شديدة التعلُّق بالأرض والتاريخ، فإن العديد من تقاليد وخواص الناس تنتقل عبر الأجيال وتصبح متداخلة في كيان النسيج الاجتماعي والمعيشة المشتركة مثل خيوط الذهب.

لا تمتلك كل الدول الشرق أوسطية البترول، والصحارى، أو الثروة، فبعضها غنية ولها مركز متميز، بينما الأخرى تناضل ولا تزال تُعد من الدول النامية. لبنان، على سبيل المثال، كانت رائدة في كل المنطقة من حيث الشئون المالية، والتعليم، والسياحة، ومتوسط دخول الأفراد، على الرغم من أنه لا يوجد بها بترول، وصحارى، أو جمال. وقد ظلت لعدة عقود تُدعى سويسرا الشرق الأوسط. لم يعد الحال كما هو. إن الدول الصغيرة عادة تدفع ثمن الصراعات الإقليمية وتصبح فريسة للسياسة العالمية.

تلك كانت تجربة لبنان، حيث أضعف تدخل الدول الأخرى البلد بشدة وتسبب في تدهورها. يشعر الشعب اللبناني بحزن على فقدان هويتهم، وانجازاتهم، وتفردهم، وعلى الأرجح دولتهم ومع هبوب رياح التغيير والسياسات التي لا يمكن التنبؤ بها مقدماً في المنطقة، قد تصبح لبنان قبرص أخرى، أو ربما فلسطين ثانية. وقد تفقد دورها كدولة "مسيحية" رائدة، وحريتها الاجتماعية والدينية، وقدرتها التاريخية على تدريب قادة الكنائس لكل الشرق الأوسط، وقدرتها على استضافة معظم المنظمات الكنسية الأوروبية والشمال أمريكية التي تخدم الشرق الأدنى وشمال أفريقيا.

جميع العرب متعصبون وإرهابيون

في أذهان بعض الغربيين، فإن لفظ عربي مرادف للمسلم المتعصب الراديكالي، وغير المتحضر بل والإرهابي أيضاً. ويمكن أن يكون سوء الفهم هذا نتيجة، لوسائل الإعلام المتحيزة، والتقارير الخاطئة من ناحية، أو لوكالات الأخبار المضللة من الناحية الأخرى. إن بعض العرب، الذين يعيشون أو يسافرون إلى الغرب، يشيرون لأنفسهم كشرق أوسطيين بدلاً من عرب، بسبب المقولات الحديثة المرتبطة بهذا اللفظ.

الحقيقة أنه توجد أنماط مختلفة من المجتمعات الإسلامية. فهناك المجتمعات التقليدية (أناس طيبون وبسطاء، أغلبهم ريفيون، يستمتعون بالحياة المجتمعية المسالمة والتراث الثقافي الغني)، والمجتمعات العلمانية (أغلب الناس متعلمون ورجال أعمال، يعيشون في مجتمعات منفتحة نوعاً ما وهي مجتمعات تزداد تعقيداً)، والمجتمعات الأصولية (الشديدة الانهماك بالقضايا الاجتماعية السياسية والدينية الإسلامية إلى أقصى درجة ممكنة، والمجتمعات المتوسطة (المعتدلة في الآراء والممارسات، كأفراد، وجماعات، أو دول)، وأخيراً، المجتمعات القومية (التي تجاهد لتأسيس نظام سياسي يجمع بين الحكم والديانة والحياة الاجتماعية بتطبيق القوانين والقواعد الإسلامية المدنية على كل الشئون الشخصية، والطائفية، والمجتمعية) (لمزيد من التحليل، أنظر مجلد، 1982).

في مفهوم بعض المثقفين المسلمين مثل عبد المسيح (1996)، فالإسلام ليس مجرد ديانة أخرى، أو خياراً دينياً، كما يعرفه عدد كبير من الغربيين "الإسلام ديانة محورها الله" (ص 50).

المسلمون الحقيقيون، كما يشرح بعض الأقليات "الأصوليون" يجب أن يهدفوا إلى الدولة الثيوقراطية: إن مثل هذه الدول الدينية تعكس النظم الروحية، والثقافية، والمدنية المرتبطة معاً. طبعاً لعبد المسيح، هناك فارق جوهري بين الإسلام والمسيحية بخصوص وجهة النظر الخاصة بالحروب الدينية واستخدام القوة: الله في القرآن يأمر المسلمين المؤمنين بالجهاد ويعد بأن الذين يموتون في الجهاد المقدس والرجاء في أن يذهبوا مباشرة إلى الجنة" (ص 60). يعتقد أن محمداً قد اشترك في بعض الغزوات، ويظل نموذجه "النموذج الفريد المثالي لكل الحروب الإسلامية باسم الله" (ص 60).

إن نشأة "المتطرفين" أو المتعصبين ـ وهم قلة حتى الآن ـ كأسمى أشكال المقاومة أو، كما يعتبرون أنفسهم، مقاتلو الحرية، وحاملو أسمى الأيدلوجيات في خدمة الله، قد أعاد صياغة المناخ الكلي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. من الواضح، أنه توجد أسباب رئيسية تدعو العديد من الجماعات للغضب من الغرب عموماً واتخاذ موقف العداوة تجاه الولايات المتحدة الأمريكية بنوع خاص. إن موقفهم يزداد استياء من الغرب بسبب غزوه الثقافي، واستغلاله الاقتصادي، وظلمه السياسي، وتفوقه العسكري، وجشعه الاستعماري. إنهم غاضبون بنوع خاص من حكومة الولايات المتحدة بسبب مساندتها الزائدة عن الحد وغير المشروطة لدولة إسرائيل. بالنسبة للمسلمين الغيورين تعد أورشليم (القدس) مكاناً بالغ الأهمية. إنها ثالث أقدس مدينة، بعد مكة والمدينة، وكلاهما في المملكة العربية السعودية. بالإضافة لذلك، فإن أولئك الذين لديهم القليل من المال أو لا يمتلكون مالاً "، فإنهم يبغضون مستوى المادية، والمتعة، والاستهلاك الوفير الترفي لأولئك الذين لديهم الكثير من المال". إن البعض يساوي أيضاً بين المسيحية والغرب ويتذكر بطعم مرير تاريخ الصليبيين الأوروبيين الذين غزوا المنطقة العربية والعالم الإسلامي.

وبالإضافة لذلك فإنهم يبغضون نظم الحياة الفاسدة، والمنتجات، والبنود والأفلام التي يُصدِّرها الغرب باستمرار إلى الشرق الأوسط.

إن فهم الأنماط الرئيسية للمجتمعات الإسلامية والمعتقد الرئيسي للفكر الإسلامي له تداعيات هائلة لأي عمل مسيحي أو أي عاملين في الشرق الأوسط. وبناءً على نوعية المجتمع ومستوى التفاني الديني حيث يقرر الرعاة والمرسلون المسيحيون أن يقيموا ويخدموا، إنهم يجب أن يكونوا حذرين في وجهات نظرهم ومعاملاتهم، ولغتهم، وأنشطتهم. إن الهدف الرئيسي أن يكونوا مقبولين ومؤثرين في القيام بأي إسهامات مطلوبة، وفي نفس الوقت يتجنبون أي أخطاء استفزازية أو إساءات لا ضرورة لها ضد المجتمع المضيف ومجتمع الشرق أوسطي الأوسع نطاقاً.

الخلفية التاريخية والدينية

اللفظان بلاد العرب والعربة يشيران إلى السهول والبرية. "العرب والعبرانيون لم يكونان في الأصل أمة أو قومية. لقد كانوا قبائل رُحَّل تتجول في البرية" (Hamada,1990).

يندهش معظم الغربيين عندما يعرفون أن العرب واليهود جاءوا من أصل واحد"، "وكلاهما من أصل سامي (أي من أولاد سام)" (ص40). كما أن اللفظ عربي يعني "صحراء" ومن المرجح أنه مستمد من الكلمة العبرية (Eber). وهذه الكلمة تشير حرفياً إلى الناس الذين يعيشون "على الجانب الآخر" أو "فيما وراء النهر (الفرات)". إن كلمة عبور هي الكلمة العربية مقابل (Eber)، بمعنى "يعبر" (ص40). في القرآن تستخدم الكلمة عرب أيضاً لوصف البدو والرُحَّل.

من الإشارات الكتابية إلى العرب ما ورد في (إر24:25) "وَكُلَّ مُلُوكِ الْعَرَبِ وَكُلَّ مُلُوكِ اللَّفِيفِ السَّاكِنِينَ فِي الْبَرِّيَّةِ".

مع أن الكلمة إسلام في اللغة العربية تحمل معنى السلام، إلا أنها في الأساس تعني الخضوع الكلي لمشيئة الله. يدعو الإسلام للخضوع التام لله، الواحد، المتعال، والعلي. الله بعيد وغير منظور والمسلمون الأمناء الصادقون ليس عليهم سوى اتباع قوانينه وتعاليمه كما جاء بها محمد آخر من أرسلهم الله، وخاتم الأنبياء. يبدو أن محمداً كان مفكراً بارعاً ومُصلحاً عظيماً. إنه تعلم باجتهاد عن الحياة الروحية والتقوى وواجه الوثنية بشجاعة والفساد الاجتماعي في عصره.

لقد انتشرت شهرته بسرعة، وتم قبول رسالته على نطاق واسع. إن مرحلة ما قبل الإسلام في بلاد العرب "الجاهلية" كان يُشار إليها كوقت الجهل قبل أن يقدم محمد "الصراط المستقيم" وعلى الرغم من وجود قبائل كان

تؤمن بإله واحد في المنطقة والتي كان محمد يحترمها وقد اجتذبته بإيمانها بإله واحد، إلا أنه رغب في توحيد بلاد العرب والإسلام.

ولذلك فإن ظهور وانتشار الإسلام كحركة دينية وثقافية وسياسية قوية قد نتج عنه ميلاد حضارة عالمية كبرى قد تمتعت بالنجاح الملحوظ والتقدم في فن المعمار، والعلوم، والآداب، بينما كانت معظم أوروبا لا تزال يلفها تاريخ مظلم. لقد كان ذلك على وجه التحديد العصر الذهبي للإسلام.

إن العديد من الجماعات والدول الإسلامية تحاول حالياً استعادة ذلك المجد. إنها لا تزال تأمل في استعادة القوة الكاملة للإسلام وتحلم بوحدته الكاملة وتوسعه. العديد من الدول الإسلامية لديها موارد مالية كبيرة، أساساً من آبار البترول، المعروفة بالذهب الأسود. ولذلك فإنها تشعر أنها مباركة خصيصاً من قِبَل الله وملتزمة بوجه عام بالحفاظ على طريقه الحقيقي وانتشاره (يوسف، 1991).

إن الإسلام أساساً هو طريقة حياة تحكمها مجموعة معتقدات، وتعاليم محددة، وقواعد روحية، وقوانين مدنية، وأعراف اجتماعية. إن التفسيرات العديدة للتعاليم الإسلامية تملأ مجلدات من التعليقات المُفصلة ذات العلاقة تقريباً بكل جانب من جوانب الحياة المتعلقة بعامة الشعب، والسلوك الشخصي، والسلوك العائلي. من المهم ألا ننسى أن الإسلام مثل أية ديانة أخرى تاريخية كبرى تحتوي على العديد من الفروع والمدارس الفكرية، بالإضافة إلى التقاليد المختلفة والمميزات الثقافية. المسلمون المتمسكون بديانتهم من كل التقاليد يشعرون بقوة أنهم مسئولون أمام الله لكي يطيعوا شرائعه ويواصلوا الدفاع عن قضاياه. يركز الإسلام على وحدانية الله وسلطانه. يوجد قدر كبير من التداخل والتشابك في القصص، وهناك العديد من الموضوعات المتشابهة بين المسيحية والإسلام، وبين الكتاب المقدس والقرآن.

ستة معتقدات خاصة بالديانة الإسلامية

1. **الشهادة:** إشهار الإيمان "أشهد أن لا إله إلا الله (الإله الواحد) وأن محمداً رسول الله" هذا المعتقد هو المحك لكي تصبح أو تبقى مسلماً حقيقياً.
2. **الصلاة:** الصلوات المقررة ، خمس مرات يومياً، جهرية أو خاصة، قِبلتها مكة، أقدس مدينة لديهم. تذاع الدعوة للصلاة عادة من مآذن الجوامع في كل أنحاء العالم الإسلامي. الصلوات ليست أحاديث مع الله، بل مهام تؤدى وترديدات لأقوال محددة، حتى يمكن طاعة مطالب الله وإرضائه. عند الموت، الله وحده له الكلمة الأخيرة فيما يتعلق بمَن يذهب إلى الجنة ومَن يذهب إلى النار. يرجو المسلمون أن يزيد وزن كفة سلوكهم وأعمالهم، وإخلاصهم الروحي على كفة خطاياهم، حتى يحكم الله لصالحهم. إنهم أحرار في تلاوة الصلوات الشخصية بعد تلاوة الصلوات المتوقعة.
3. **الزكاة:** تقديم الصدقات، مطلب من مطالب ممارسة العقيدة. إن تقديم المال بأي شكل ولأي قضية لا غبار عليها (شأنه شأن نشر الدعوة الإسلامية). يستفيد الفقراء من هذه الممارسات، خاصة في الأعياد الإسلامية.
4. **الصوم:** الصيام، يقتصر غالباً على شهر رمضان المبارك، الشهر الذي يُعتقد أن القرآن قد أُنزل فيه مباشرة وأُعلن لمحمد. السنة الإسلامية مبنية على 12شهراً قمرياً.
5. **الحج:** الحج إلى مكة، يجب أن يتم خلال وقت معين من تقويم السنة القمرية ويجب أن يكون قاصراً على مرة واحدة مدى الحياة. إن ملايين المسلمين من كل أنحاء العالم يجتمعون في المملكة العربية السعودية فيما يُعرف بأنه أكبر حج ديني وحيد في التاريخ.
6. **الجهاد:** النضال لأجل قضية مقدسة أو خدمة الله. بغيرة حماسية ومجهود كبير قد يكون لهذا اللفظ مدلولان أحدهما معتدل والآخر قوي. إنه يمكن أن ينطبق على المستوى الشخصي (على سبيل المثال: السعي الشخصي نحو الطهارة والتقوى)، بالإضافة إلى المستوى المجتمعي أو القومي (على سبيل المثال: السعي نحو تفانٍ أكبر في خدمة الإسلام كبلد). وإن كان من الضروري، يمكنه أن يتخذ معنى أكثر حدة أو شدة مثل "الاقتتال في حرب مقدسة" يعتقد أنها واجب على كل مسلم متمسك بدينه ـ رجلاً كان أم امرأة، ولداً كان أم بنتاً ـ في مواجهة الفساد، والتهديد، أو الظلم. ينادي على الجهاد لأجل الدفاع عن العقيدة أو تعزيزها، الإعلاء من شأنها. مع أن معظم المسلمين ودودون ورحماء، إلا أنه في قلب التعليم الإسلامي، يوجد مكان لآراء متباينة وتفسيرات متباينة، ومواقف راديكالية، يمكن أن تقود إلى مشاعر متطرفة واستعمال العدوان أو القوة.

ليس سراً أنه ليست المنظمات والجماعات فقط هي التي تساند الجهود المضاعفة لنشر العقيدة الإسلامية وممارساتها، بل إن حكومات رسمية معينة ترسل دعماً مالياً كبيراً للترويج للإسلام في كل أنحاء العالم. إنهم يدعمون الجهود الكثيرة الجبارة لتعليم القرآن وكسب مقتنعين جدد له في أفريقيا، لتقوية المجتمعات الإسلامية والدول المناضلة في الاتحاد السوفييتي سابقاً، ولبناء جوامع كبيرة ومراكز إسلامية في كل أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية. إن واضعي الاستراتيجيات الإسلامية يستخدمون وسائل، وطرقاً، ومناهج مماثلة لتلك التي يستخدمها المسيحيون في الكرازة والعمل المرسلي. طبقاً لما قاله "ورتسمان Wertsman" (2001، ص42)، "على الرغم من العدد الغير متكافئ للعرب المسيحيين، فإن تدفق العرب المسلمين قد أسهم في جعل الإسلام واحداً من أسرع الديانات نمواً في الولايات المتحدة. ويعتقد أنه في العقود القليلة المقبلة، سوف يتفوق عدد المسلمين على عدد اليهود في الولايات المتحدة".

على الرغم من أن الرسالة الإسلامية تمتد غرباً، إلا أن الرسالة المسيحية تمتد شرقاً. ومع ذلك، فالعديد من الدول الإسلامية تحمي شعوبها وحدودها من أي تأثير مسيحي. إنها قلقة بشأن أي اختراق مسيحي أو غير إسلامي. إنها لا تسمح بأي حرية لأي ديانة بخلاف الإسلام، الذي يُعد بالنسبة لها الديانة الوحيدة. مثل هذه الدول تشتهر بأنها حصرية وتعمل بموجب قوانين صارمة (دعم الشريعة الإسلامية). إنها تميل لمقاومة، وفي بعض الأحيان، اضطهاد أي معتقدات وأنشطة غير إسلامية. إن العاملين المسيحيين الذين يعيشون في هذه البيئات عليهم أن يراقبوا تحركاتهم، وعلاقاتهم، وأنشطتهم بحرص. وعلى النقيض من ذلك، فإن الدول الغربية عموماً تقدم للمهاجرين والاستراتيجيين المسلمين (وغيرهم) حرية الحركة، والعبادة، والتعليم، وتجنيد الآخرين، وممارسة شعائرهم الدينية وتقاليدهم.

تحديات تواجه الخدمة المسيحية

كلما نشطت الخدمة الإنجيلية أو البروتستانتية، زادت المقاومة التي تواجهها "إن هذه المقاومة قد لا تأتي فقط من القادة الدينيين غير المسيحيين، ومن الدولة، أو من الجماعات السياسية والاجتماعية الراديكالية، ولكن أيضاً من بعض قادة الكنائس التقليدية والقديمة، الذين يشككون في مصداقية الحركات الكنسية وشبه الكنسية الحديثة. إن المجموعة الأخيرة يمكن أن تنظر إلى الإنجيليين والبروتساتنت وكأنهم لا ينتمون لتاريخ الشرق الأوسط الطويل وتراثه. بل إنهم ينظرون إلى خدماتهم كما لو كانت صيغ مسيحية مستوردة من الغرب، ينقصها الاستمرارية، والحقيقة، والترابط الذي بين الشرق أوسطيين. أما الجماعات الأخرى التي تُعد يسارية سياسياً ومتطرفة في ايدلوجياتها يعتقدون أن الإنجيليين والبروتسانت قد خبأوا الأجندات السياسية وأصبحوا مؤيدين للغرب ومن ثم مؤيدين للصهاينة في توجههم. هذا الاعتقاد يُعقّد خدمتهم كثيراً. إن الرعاة المحليين والمرسلين عليهم أن يحاولوا القيام بشرح وإثبات أنهم كتابيون حقاً، وأنهم ليسوا سياسيين، وأنه لا علاقة لهم بدولة إسرائيل الحديثة كدولة يهودية، وأنه توجد أشياء كثيرة مشتركة تربطهم بالكنائس التقليدية والعقائد المسيحية التاريخية في المنطقة.

كلما كان الرعاة والمرسلون منفتحين وودودين تجاه قادة المجتمع المحليين والروحيين (يستحسن مصادقة القادة الدينيين غير المسيحيين أيضاً)، أصبحوا أكثر قبولاً وأصبحت خدمتهم كذلك أيضاً.

لسوء الحظ، فإن بعض الرعاة والمرسلين الإنجيليين يحضرون معهم أسلوباً يميل إلى الفردية والانعزالية، وهذا يسبب الضرر بأكثر مما يسبب النفع. فبدلاً من الجهود التعاونية والعمل جنباً إلى جنب مع الوطنيين والمحليين الآخرين، فإن هذه الاستراتيجيات الانعزالية تخلق عادة انطباعات سلبية، وسمعة سيئة، والمزيد من الشك. والأهم من ذلك، فأولئك الذين يتبعون مثل هذه الاستراتيجيات ينأون بأنفسهم والذين من حولهم عن المجتمع.

إنني أقول دائماً لزملائي في الشرق الأوسط أننا لا نستطيع أن ننتقد، ونعارض، أو نقاتل بعضنا بعضاً بسبب الاختلافات التعليمية أو العلمية. نحن بحاجة لأن نوحِّد جهودنا ونساند بعضنا البعض، مُفسحين المكان للأساليب والطرق الفريدة في داخل المجتمع المسيحي الأكبر.

ولحسن الحظ، فنحن نرى ذلك يحدث بازدياد من خلال تكوين "الشراكات الاستراتيجية" بين المسيحيين في المنطقة، بين الوطنيين والمغتربين. تستدرج هذه الجماعات معها منظمات وطوائف مختلفة لكي يصلوا ويطوِّروا استراتيجيات تعاونية للخدمة سوياً. إنهم مثل نسمة من الهواء العليل والتشجيع الضروري في وسط الضغوط والاضطرابات.

يواجه الرعاة والمرسلون غالباً صراعات عاطفية وآلاماً نفسية في حياتهم العائلية على المستوى الشخصي وعلى مستوى العلاقات الزوجية. وبالإضافة لذلك فإنهم غالباً يخدمون سكاناً مهمومين وعائلات في كل أنحاء المنطقة بحاجة إلى مساعدة دقيقة، وفي بعض الأحيان، بحاجة إلى اهتمام محترف. ولكي يكون العاملون المسيحيون مؤثرين فإنهم بحاجة إلى تدريب سليم وتعليم مستمر، بالإضافة إلى مهارات في حل المشكلات، والتدخل في وقت الأزمات، وتقديم المشورة الأساسية. إنهم أيضاً بحاجة إلى الانتماء وإلى الصداقة الحميمة الحقيقية، والاحتياجات إلى النمو الشخصي والذهني، والحاجة لشخص ما للإشراف عليهم، والوقوف بجانبهم وتشجيعهم. إنهم يتوقون لمن يقدم لهم الرعاية، والنصيحة والدعم الكافي.

خلال الخمس سنوات الأخيرة، كنت أقضي عدة شهور في الشرق الأوسط كل عام، بحيث أكون متاحاً للكنائس والمجتمع ككل. لقد حاولت تقديم المساعدة بأي وسيلة ممكنة ـ معلماً، ومشيراً، وواعظاً، ومدرِّباً ومشجعاً. لقد استمتعت كثيراً بالعمال المسيحيين والاستماع إلى ذكرياتهم عن رحلاتهم الرائعة.

وبالإضافة إلى الشكوك المزمنة والضغوط الكبرى للحياة اليومية، فإن عدداً كبيراً من العاملين المسيحيين في الشرق الأوسط ـ تماماً كنظرائهم في أجزاء أخرى من العالم ـ يحملون معهم أعباء ثقيلة، بالإضافة إلى الحزن والأسى العميقيين. فقد اجتاز كثيرون في أزمات عديدة، واختبروا خسائر كبرى، وتعرضوا لأحداث مأساوية. إن الآلام تتواصل. وبالإضافة لذلك، يمكن أن تكون هناك صعوبات اقتصادية حادة، تضع عبئاً إضافياً على الرعاة والوطنيين. إن مجرد العيش على حد الكفاف يُعد نوعاً من التحدي. إن عدداً كبيراً من الناس عليهم أن يعملوا في وظيفتين لكي يبقوا على قيد الحياة. إن بعضهم كان من اللاجئين والمهاجرين، حتى وهم في دولهم. لقد تعرضت حياتهم للاقتلاع من جذورها، وتمزقت علاقاتهم العائلية بقوة، وتشتت أحباؤهم، لقد انهارت آمالهم في المستوى الأدنى من الاستقرار وتبددت. ومع ذلك فإنهم يعملون جاهدين في حفظ الإيمان وخدمة الرب بحماس. إنهم حقا أبطال الإيمان.

انعكاسات عن الاضطهاد الديني

في النصف الثاني من هذا المقال، أنا (Anneke) أحب أن أشارك بتقديم فصل موجز من كتاب عن النساء في الكنيسة المضطَهَدة، "حزن مخبأ، فرح دائم" (Companjen, 2000).

إن التركيز خاص ببعض حالات الاضطهاد ضد المسيحيين في إيران. وهذه الحالات مثال نابض بالحياة على الثمن الفادح الذي يدفعه المؤمنون وقادة الكنيسة غالباً. إن Takoosh، الشخصية الرئيسية أعطت موافقتها لاستخدام اسمها والمشاركة بقصتها.

أرجو أن تفهموا أني لا أركز على إيران بصفة خاصة، لأن الاضطهاد والتفرقة يحدثان بأشكال وصيغ عديدة في العديد من الدول – وليس فقط في الشرق الأوسط وحده ـ ويؤثران على عدد من العقائد والأديان الأخرى. ومع ذلك، فالمسيحيون إلى الآن هم المجموعة الأكبر الذين يعانون بسبب إيمانهم. في الواقع، ما يزيد على 200 مليون مسيحي لا يحصلون على حقوقهم الإنسانية الكاملة كما هو موصوف في المادة 18 من الإعلان الشامل عن الحقوق الإنسانية للأمم المتحدة عام 1948، أساساً بسبب قناعاتهم الدينية (Candelin, 2001).

تقول المادة 18: "لكل إنسان الحق في حرية الفكر، والضمير، والديانة، ويتضمن هذا الحق الحرية في تغيير ديانته أو معتقده، إما وحده أو بالتضامن مع آخرين وجهراً أو سراً، والإعلان عن الديانة التي يؤمن بها في التعليم، والممارسة، والعبادة، ومراعاة الشعائر الدينية" في سنة 1981، أكدت الجمعية العامة للأمم المتحدة المبادئ المنصوص عليها في هذا الإعلان والمواثيق الأخرى السابقة عليه عن طريق إعلانها عن استئصال كل أشكال عدم التسامح والتفرقة المبنية على الديانة أو العقيدة.

تاكوش هوفيزبيان: في جامعة الله

كانت تاكوش مراهقة إيرانية مليئة بالحيوية من خلفية أرمينية ذات عيون سوداء برَّاقة وابتسامة عذبة. كانت تحضر إلى الكنيسة في بعض الأحيان مع جدتها "وهناك سمعت أنه بإمكانها أن تكون لها علاقة شخصية مع يسوع المسيح. ولسبب ما، لم تستطع أن تخرج هذه الفكرة من رأسها، وبعد العديد من الحوارات صلَّت مع بعض أصدقائها ودعت الرب ليدخل حياتها.

بعد أن أتت إلى يسوع بوقت قليل، جاءت تاكوش بطلبة هامة إلى الله في الصلاة، قالت: "يارب أعطني زوجاً يحبك. أنا أريد أن أخدمك، وأصلّي لأجل شريك حياة يكون مسيحياً حتى نستطيع أن نخدمك سوياً".

بالطبع هي لم تكن تعرف أن شاباً يُدعي هايك هوفيزبيان كان يقدم طلبة مماثلة لله. كان هايك مؤمناً أيضاً. لقد انتهى للتو من دراساته وشعر أنه كان مدعواً من الله للخدمة المسيحية.

صلَّى قائلاً: "يارب أريدك أن تستخدمني في خدمتك. ولكني أريد شخصاً ليقف معي، شخصاً يشاركني الخدمة. أرجوك أن تساعدني لأجد فتاة تقية تريد أن ترضيك قبل كل شيء آخر. قُدني إليها، يارب، وسوف أطلب منها أن تكون زوجتي".

كان هايك يخدم دائماً كمتحدث ضيف في كنائس عديدة. وفي صباح يوم أحد زار مدينة أصفهان. وبينما كان يعظ هناك، وقعت عيناه على فتاة تبلغ من العمر 15 سنة تجلس وسط الجمهور. كان هناك عدد لا بأس به من الفتيات يجلسن في المحفل، ولكن لسبب ما اتجهت عيناه لذلك الوجه بنوع خاص. كان قد صام وصلَّى أن يجد زوجة تقية قبل القيام بالرحلة، هل كان ذلك من خياله الخاص أم أن الرب كان يقول له: "هذه هي المرأة التي صلَّيت لأجلها، لقد اخترتها لك".

هل يمكن أن يكون الأمر هكذا؟ أم إنه كان يستجيب ببساطة إلى عينين سوداوين، وروح هادئة، وابتسامة عذبة؟ لم يكن متأكداً. كانت تبدو أطول منه قليلاً، ونحيفة، ولكن شيئاً ما في روحه ظل يقول: "هذه هي المرأة". لعلمه أنه كان على وشك أن يتَّخذ واحداً من أهم القرارات في حياته، صام هايك وصلَّى لمدة 3 أيام. وعند نهاية صومه، كان لا يزال يشعر بأن الرب كان يتكلم معه بنفس الطريقة.

قاوم الشباب شكوكه ومخاوفه، واستدعى كل شجاعته وذهب ليتحدث مع تاكوش. أخبرها عن صلاته لأجل زوجة تقية. بدأ حديثه بخجل قائلاً: "يصعب عليَّ شيئاً ما أن أشرح لكِ هذا، ولكني أعتقد أن الله قد أوضح لي أنك أنتِ المرأة التي اختارها لي".

ذهبت تاكوش. لم تكن متأكدة مما ستقول، ولكن في أعماق قلبها كان لديها نفس الشعور. وبصوت مضطرب أجابت: "مثلك تماماً. لقد صلَّيت لأجل شريك يريد أن يخدم الرب معي. ربما تكون أنت استجابة لصلاتي، أيضاً".

في وقت متأخر في ذلك المساء، عندما حاولت أن تناقش الأمر مع والديها، لم يكونا مسرورين بالمرة". احتجا قائلين: "أنتِ حتى لا تعرفي هذا الرجل. وأنتِ بحاجة لإنهاء تعليمك. ماذا يحدث لو تُركت وحدكِ يوما ما واضطررتِ للعمل؟ لن يكون لديكِ شيء تعيشين عليه".

ولكن كلما تحدثت مع هايك وكلما تحدثت مع الله، ازدادت قناعة أن هذا الرجل هو الرجل المناسب لها. بعد الكثير من الحديث مع والديها وبعد العديد من الصلوات الخاصة، وافقت عائلة تاكوش أخيراً. لقد كانوا، في الحقيقة، متأثرين بالشاب، أيضاً.

قال والدها: "إنه ولد ممتاز استطيع أن أرى ذلك بنفسي".

فرح عظيم ، وحزن عميق

وهكذا في سن صغيرة، أصبحت تاكوش مسز هوفيزبيان. وسرعان ما اكتشفت أن الزواج من أحد الرعاة في إيران لم يكن بالضبط مؤدياً لحياة سهلة. ولكن محبة هايك وطرقه الرقيقة الرومانسية قد ساعدتها في الأيام الأولى من زواجها. كان من الواضح أنه يحبها، وكلاهما كانا يحبان الرب.

كانت تلك الأيام تمثل اضطرابات سياسية متزايدة في إيران، انتهت أخيراً بالثورة الإسلامية في سنة 1979. لم يمض وقت طويل، حتى هرب والدا تاكوش من البلاد وانتقلا إلى الولايات المتحدة.

سألها هايك في اليوم الذي ودعت والديها: "هل تريدين الذهاب إلى الولايات المتحدة، أيضاً ؟".

قالت له تاكوش: "كلا. لا يمكنني أن أتركك. أنا سوف أبقى هنا. ولكن تذكر فقط ـ إني أفعل ذلك من أجلك!".

اعترض عليها هايك بالقول: "كنت أفضِّل أن تبقي لأجل الله".

ولكن منذ ذلك الوقت فصاعداً، ربما لأنه كان بمثابة العائلة الوحيدة لها في البلاد، بدأ هايك يعامل زوجته كالملكة. لقد أدرك أنه كان من المؤلم بالنسبة لتاكوش أن تعيش على بُعد هذه المسافة الكبيرة من أحبائها. ولذا فقد فعل كل ما يستطيع لتشجيعها ورفع روحها المعنوية".

كان كلاهما متوافقين تماماً وقانعين كل منهما بالآخر، وكانت سعادتهما يعجزان التعبير عنها عندما وُلد لهما أول طفل، ولد صغير، مثل معظم الأبوين الجديدن، كان هايك فخوراً بدرجة كبيرة بالطفل. وكلما أحب هايك إبنهما، ازدادت محبة تاكوش لهايك. كانت تلك أسعد الأيام في حياتها ـ العناية بابنها الصغير وملاحظة سرور والده به.

كانت تاكوش تصلّي في بعض الأحيان مُعبِّرة عن امتنانها العميق بعائلتها الجديدة قائلة: "يا الله، كم أنت حلو بالنسبة لنا. لقد أعطيتني زوجاً رائعاً يحبني وطفلاً جميلاً. إنني أشكرك كثيراً لأننا نخدمك معاً".

في ذلك الوقت، كان هايك راعياً في الرابطة المسيحية، التي كانت تنمو وتزداد عدداً كل أسبوع. لم يكن هايك مجرد مدرس ممتاز للكتاب المقدس، ولكنه كان أيضاً موسيقاراً موهوباً، كان يحب أن يقود الاجتماع في التسبيح. كان صوته جميلاً بشكل متميز، وكانت العبادة في كنيستهما دائماً تجعل الدموع تنساب من عينيهما. كانت تاكوش تصلّي دائماً، وهي تشعر بالبركة بطرق لم تكن تتخيلها "أشكرك، يارب، من أجل كل ما عملته لأجلنا".

لسوء الحظ، فإن أعظم الأفراح في الحياة في بعض الأحيان يجب أن تُفسح الطريق لأعمق الأحزان. وهكذا كان الحال مع تاكوش، التي كان عليها أن تواجه مقداراً عظيماً من الألم. في إحدى الليالي بينما كانا يركبان السيارة في طريقها إلى اجتماع مسيحي، اصطدمت سيارة هايك من الأمام بمركبة أخرى. كان سائق السيارة الأخرى هو المخطئ، ولكن ذلك لم يجلب لهما أي قدر من العزاء. أصيب كل من هايك وتاكوش إصابات بالغة، وقُتل ابنهما الجميل في الحال.

كان ألم تاكوش الجسدي شديداً، ولكن ألمها النفسي كان فائق الوصف.

كانت تاكوش تبكي بحرقة بينما كان جسدها يتماثل للشفاء ببطء وألم وهي تقول: "كيف سمحت بحدوث هذا، يارب؟ كل ما كنا نريد أن نفعله هو أن نخدمك. لماذا لم تحفظنا؟ لماذا مات ابننا".

لم تكن هناك إجابات سهلة على أسئلة تاكوش اليائسة، ولعدة شهور كان يبدو أن روحها الكسيرة لن تُشفى. لقد استغرقت وقتا طويلاً جداً قبل أن تتوقف عن الغضب من الله. لحسن الحظ فإن المسيحيين الآخرين في كنيستهما فهموا معركتهما، وكانوا يصلّون لأجلها على الدوام. لقد صلّوا حتى تتمكن تاكوش من أن تصفح عن السائق الآخر، وصلّوا لكي يشفي الرب قلبها المتألم. وقدموا المساعدة بكل طريقة عملية متصورة.

وفي النهاية تخلت تاكوش عن مرارتها واستودعتها بين يدي الله، وما أن فعلت ذلك حتى قلت الجروح في قلبها. وبمرور الوقت، تعلمت كيف تحتفظ بحزنها في مكانه، خاصة بعد أن أعطاها الله وهايك إبناً آخر.

في نفس الوقت، كان هايك قلعة صامدة خلال هذا الوقت المريع. لقد مكّنه إيمانه القوي بالله بألا يتزعزع في أيام الشدة. وبدلاً من التفكير طويلاً في خسارته، خصَّص وقته لمساعدة تاكوش. لقد دُهِشت أن ترى زوجها على استعداد لعمل أي شيء ليجعل حياتها أكثر سهولة. كان حبها له بلا حدود. كان نور لحياتها.

"ضياع الأخ هايك"

بمرور السنين عندما ازداد عدد أفراد عائلتهما. هكذا كثرت اضطهاداتهما. بعد موت ابنهما الأول، بارك الله هايك وتاكوش بأربعة أطفال آخرين ـ ثلاثة أبناء وبنت. وعندما أُخذ مهدي ديباجي، راعي إيراني آخر إلى غياهب السجن ولم تستطع زوجته العناية بأطفالهما، ازدادت العائلة مرة أخرى. أصبح هايك كأب لأطفال ديباجي أيضاً.

أصبح الآن دور هايك في المجتمع الإيراني المسيحي أكثر أهمية وأكثر وضوحاً. لقد أصبح الآن رئيساً لمجلس الرعاة البروتستانت. ولقد كان يرجع له الفضل في موقفه في إصدار تقرير عن انتهاكات حقوق المسيحيين في إيران، وقد تم نشر هذا التقرير في كل أنحاء العالم. لقد رفض أيضاً أن يصادق على وثيقة أصدرتها السلطات الدينية والسياسية الإيرانية تقول أن الكنيسة المسيحية في إيران تستمتع بالحرية الدينية. لم يجعل له ذلك أصدقاء في نظام الحكم المتطرف الشديد الصلابة الذي كان يحكم البلاد.

ومما زاد الطين بلة، أنه حين تم الضغط على هايك للكف عن تقديم رسالة الإنجيل للمسلمين، فإنه رفض رفضاً قاطعاً. لقد أعلن بوضوح أن كنيسته بطهران سوف تواصل الترحيب بأي شخص وكل من يريد أن يعرف المزيد عن يسوع المسيا.

كان الأخ هايك يكرز بالإنجيل في كل مكان يذهب إليه، ولكل من يريد أن يسمع، بغض النظر عن معتقداتهم. لم تستطع أي حكومة أن تكبح جماحه. كانت كنيسته نشطة ونابضة بالحياة، وكان هايك محبوباً من قِبَل كل من عرفه ـ كل شخص فيما عدا السلطات الإيرانية. إن الحياة المسيحية الواضحة المعالم في عالم إسلامي متطرف كان يمثل تحدياً لا يجرؤ على مواجهته سوى عدد قليل من المؤمنين، ولكن هايك كان يواجه ذلك بصفة يومية، جنباً إلى جنب مع القادة المسيحيين الآخرين الذين شاركوه شجاعته وإيمانه. ضرب هايك مثلاً للعالم كله برفضه للاستسلام وللتهديد وللخوف.

في يوم ما في يناير سنة 1994، ودَّع هايك تاكوش بقبلة واتجه إلى المطار، حيث كان مقرراً أن يلتقي بصديق. في البداية، عندما لم يعد، اعتقدت أن السلطات ربما احتجزته. ولكن عندما أخذت تبحث عنه في كل

مكان، كان كل موظف يقول لها نفس الشيء: "نحن لا نعرف شيئاً عنه". كان أفضل ما ترجوه تاكوش أن يكون زوجها في السجن.

بعد يومين، فإن يوهان والأطفال وأنا كنا قد بدأنا تناول العشاء عندما قاطع جرس التليفون حديثنا أثناء تناول الطعام. التقط يوهان السماعة، وبينما كان يصغي للصوت على الطرف الآخر، فإن التعبير الذي كان على وجهه أخبرنا أن شيئاً رهيباً كان يحدث.

كانت المكالمة من كاليفورنيا، من صديق مسيحي إيراني هناك: "يا يوهان، الأخ هايك مفقود منذ يومين. لا أحد يعرف أين هو أو ماذا حدث له. لقد ذهب إلى المطار ليلتقي بشخص ما ولم يعد للمنزل. صلِ من فضلك، وحاول دعوة الآخرين للصلاة أيضاً. بصراحة، إن الموقف لا يبدو جيداً ...".

جاء الخبر الحزين كالصدمة، ولكنه لم يكن متوقعاً تماماً. نحن نعرف أن الراعي هايك كان يتحدث بصراحة تامة عن اضطهاد المسيحيين الإيرانيين. خلال الشهور الماضية، كانت هناك حملة عالمية للاحتجاج والصلاة ضد تنفيذ حكم الإعدام الوشيك على ديباجي، الذي كان هايك وتاكوش يعتنيان بأطفاله طوال السنوات التسع التي قضاها في السجن. ولكن ديباجي قد أُطلق سراحه على غير توقع منذ بضعة أيام قليلة.

عن طريق القنوات المفتوحة، اتصلنا بالأصدقاء والزملاء الذين نظموا مجهوداً شاملاً للصلاة، وفي خلال ساعات، فإن آلاف الناس في عشرات الدول كانوا يصلّون لأجل هايك على مدار الساعة.

وأخيراً، بعد أكثر من أسبوع من الانتظار بقلق لسماع أخبار عن مكانه، في صباح يوم الأحد، 30 يناير، دق جرس التليفون في منزل هوفيزبيان، سلّمت تاكوش السماعة لابنهما الأكبر، جوزيف. قالت بهدوء: "إنه البوليس ، وهم يريدون أن يتحدثوا معك".

عندما وصل جوزيف إلى قسم البوليس، دفع ضابط بطريقة فظة صورة فوتوغرافية مرعبة إلى يديه". سأل ضابط البوليس ببرود: "هل هذا أبوك؟ لقد وجدنا جثته في زقاق ضيق في طهران. لقد قُتل بوحشية. يبدو أنه مات منذ حوالي 10 أيام".

تعرَّف جوزيف على الجثة في الصورة الفوتوغرافية وعرف أنها لوالده.

سرت موجات من الصدمة في كل أنحاء العالم. في الواقع، إن عدداً كبيراً من المسيحيين، حتى أولئك الذين لم يعرفوا هايك شخصياً ـ شعروا أنهم فقدوا صديقاً حميماً. ولكن تاكوش وأولادها الأربعة، الذين تتراوح أعمارهم فيما بين العاشرة إلى الثالثة والعشرين، فقدوا أعز شخص في كل العالم إلى قلوبهم.

ظلت تاكوش تبكي لعدة أيام وأصبح الجلد الذي تحت عينيها ملتهباً، ومصاباً، إنها ببساطة لم يكن في مقدروها التوقف عن البكاء. وبعد أيام، امتلأت أعيننا بالدموع عندما شاهدنا فيلماً في الفيديو عن الخدمة التذكارية في كنيسة الله في طهران. لم أستطع أن أبعد عيني عن أرملة هايك. كانت تجلس في الصف الأمامي، يحيط بها أولادها، وكلهم متشحون بالسواد. كان وجهها درساً في التراجيديا المأساوية. أخذت أتساءل إن كان بمقدورها أن تبتسم مرة أخرى.

كانت الكنيسة مكتظة بالبشر. كانت صورة كبيرة لهايك موضوعة على المنبر محاطة بأكاليل وباقات من الزهور. اسمتعنا في صمت لتسجيل لإحدى عظات هايك عن الاضطهاد والألم.

بعد ذلك، ملأ صوته الجميل قاعة الكنيسة عندما تم تشغيل إحدى ترنيماته المسجلة. تم تسليط زووم الكاميرا على مهدي ديباجي وهو يصيح عندما تكلم أثناء الخدمة قائلاً: "ليس هايك، بل أنا الذي كان يجب أن يموت!". لم يمض وقت طويل قبل أن يُثبت أن كلماته كانت نبوية.

دروس للتعلُّم

صلّى المسيحيون في كل مكان لأجل تاكوش وعائلتها، ولأجل المؤمنين في طهران الذين كانوا يجتازون وقتاً عصيباً. تم إرسال آلاف البطاقات. كانت تحياتهم تلقى تقديراً عظيماً، ولكن الجرح الذي لحق بروح تاكوش كان يبدو أصعب من أن يندمل. عندما ضاعت الحقيقة بخصوص جريمة قتل هايك، وجدت تاكوش نفسها في صراع روحي عنيف.

كان قلب تاكوش مليئاً بالكراهية تجاه قاتلي زوجها. كرهت المسلمين الذين جلبوا هذا الحزن الرهيب عليها وعلى عائلتها. اختمرت أفكار تبرئة موقفها هذا في عقلها. كانت خائفة من غضبها الشديد، خائفة لئلا تفقد السيطرة وتضرب شخصاً ما بسيارتها أو تصيب شخصاً بريئاً.

عندما زار الأصدقاء تاكوش بعد بضع شهور، هزَّت رأسها وقالت: "لقد دخلت جامعة الله. لقد بدأت في أدنى الصفوف. ولكن ببطء وبثبات بدأ الله عمله في قلبي.

في البداية، كان عليَّ ببساطة أن أكون على استعداد للصفح عن القتلة. بدأ الصفح بقرار من الإرادة، وتوالت الانفعالات بعد ذلك بوقت كبير. يوماً ما، بعد أن أعطت الله الإذن لكي يبعد الكراهية بعيداً، أدركت أنها قد ولَّت مبتعدة عني. أخيراً استطعت أن أصفح عن الناس الذين قتلوا زوجي".

كانت تاكوش قد كسبت المعركة، ولكن لم يمض وقت طويل قبل أن تدرك عقبة أخرى، كان الله يطلب منها ليس فقط أن تصفح عن أعدائها بل أن تحبهم.

صاحت قائلة له: "يارب، أنت تطلب مني أكثر مما يجب. كيف يمكنني أن أحب أولئك الذين قتلوا حب حياتي؟".

أمسكها الله من يدها بلطف وقدَّم لها يد المساعدة. وشيئاً فشيئاً، وخطوة بخطوة، وصلت إلى النقطة التي أدركت فيها أنه بإمكانها أن تحب أعدائها. بدأت ترى المسلمين المتطرفين بنفس الطريقة التي كان الله يراهم بها ـ كخراف ضالة بلا راعٍ. طلب الله من تاكوش أن تحب، وقد مكَّنها من ذلك. لقد ساعدها لكي تجتاز الامتحان التالي:

قالت: "ولكني لم أكن متأهبة تماماً للخروج من جامعة الله. لم تنته العملية بعد، أمرني الله أنه يريد مني أن أسبحه وأشكره لما حدث.

كان ذلك شيئاً مستحيلاً. لقد استطاعت أن تكون مطيعة بخصوص الصفح والمحبة، ولكن كان التسبيح يتطلب منها أن ترنم، وأن تبتهج، وأن تشيد بذلك. كيف يمكن لأي شخص أن يتوقع منها أن تفعل ذلك؟ كان الله يعلم مقدار ما كان يعنيه هايك بالنسبة لها، وكيف كانت بحاجة إليه وقد اعتمدت عليه.

قالت تاكوش وهي تشرح موقفها: "كنت لا أزال أريد أن أكون مطيعة وأن أنمو في الرب. ولذلك مرة أخرى لم يكن أمامي خيار آخر. بدأت أشكر الرب بفمي، على الرغم من أن قلبي كان يبكي في نفس الوقت. لم يكن قلبي مستعداً، ولكني كنت مطيعة بفمي، وكما حدث من قبل، بدأ الله يعمل في روحي".

قام الرجال والنساء المسيحيين في كنيسة طهران بتغيير مسار حياتهم لمساعدة عائلة هوفيزبيان. خلال الأيام التي كان فيها هايك مفقوداً، وبعد التأكد من خبر وفاته، كان يتناوب أعضاء الكنيسة والعديد من الرعاة المحليين في مواساة تاكوش والأولاد.

ظلوا لمدة طويلة يهتمون باحتياجاتها اليومية بكل الطرق العملية الممكنة. كانوا يقومون بالشراء، والطهي، والتنظيف. لم يكن يمر يوم تُترك فيه تاكوش وحدها. لابد من وجود شخص ما لمواساتها، وتشجيعها من آيات الكتاب المقدس، وإعالتها.

قالت تاكوش: "وعلى الرغم من أنني افتقدت عائلتي كثيراً، إلا أنه لم تمض لحظة بعد موت هايك تمنيت فيها أن يكونوا معي. لقد لقيت كل الحب، والرعاية والعزاء الذي احتجته من الكنيسة".

كان الرب نفسه حقيقياً لتاكوش شخصياً، وفي بعض الأحيان بصورة ملموسة مذهلة. لقد أثبت الله لها أنه لم يكن مهتماً فقط بتدبير احتياجاتها الكبرى ولكنه كان مهتماً أيضاً بأدق تفاصيل حياتها. من الأمور البسيطة التي كانت تشرح صدر تاكوش استمتاعها بأكل الشيكولاته. يوماً ما، حزنت عندما أدركت أنه لم يكن لديها سوى قطعة صغيرة باقية. وعندما أكلتها صلَّت قائلة: "يارب، من فضلك أنت تعلم كم أحب الشيكولاته. فهل ترسل لي المزيد منها؟".

في نفس ذلك اليوم، وصل بعض الزوار من كندا والولايات المتحدة إلى شقتها. أخذت تفتح هداياهم وهي ممتنة ـ لعب وملابس لعائلات الشهداء الآخرين. وأخيراً، فتحت بفرح شيئاً كان قد أُحضر لها خصيصاً ـ شيكولاته. مرة أخرى، تذكرت تاكوش اهتمام أبيها السماوي بها دون كلل.

من أصعب الأوقات التي مرت على تاكوش، عندما تزوجت إبنتها ريبيكا (Rebecca) كانت تاكوش بحاجة إلى نعمة فائقة شيئاً ما لكي تجعله يوماً مُفرحاً للزوجين الشابين.

كان هايك وتاكوش يتطلعان بشوق لهذه المناسبة السعيدة معاً. والآن كان عليها أن تحتضن تلك المناسبة لوحدها. بينما كان البيت يُزيَّن لأجل حفل الزفاف، صلَّت تاكوش بهدوء لكي يساعدها الرب على اجتياز ذلك الموقف العصيب.

كان يوماً به فرح غامر، لأن الشابين المسيحيين كانا يبدآن حياتهما معاً ببركة الله. كانت تاكوش شاكرة لأن ابنتها قد أعطيت زوجاً تقياً، ولكن بالنسبة لها، كان اليوم يبدو فارغاً وكئيباً بدون وجود هايك هناك للاحتفال معهم.

موضوع حياة أو موت

لم تكن تاكوش الأرملة المسيحية الحزينة الوحيدة في إيران. في ديسمبر سنة 1990، تم شنق الراعي سودماند (Soodmand)، الذي اعتنق الديانة المسيحية بعد أن كان مسلماً، حيث شُنق بالقرب من مدينة مشهد، مرت زوجته، التي كانت عمياء، بظرف عصيب وهي تتعامل مع موته، ولكن تاكوش استطاعت أن تشاركها المحنة التي كانت تجتاز فيها.

مع أن أرملة سودماند قد تعزَّت حين علمت أن آخرين، مثل تاكوش، قد اختبروا حزناً كحزنها، إلا أنها لا تزال بحاجة إلى صلواتنا.

وكما اتضح، لم يكن هايك الراعي المسيحي الوحيد الذي يضع حياته في إيران في ذلك العام. ففي شهر يونيو، بعد 6 شهور من إطلاق سراحه، قُتل مهدي ديباجي في أحد المتنزهات تاركاً أربعة أطفال وراءه. مات كشهيد، أيضاً، على الرغم من أن الحكومة ألقت باللوم على جماعة من الإرهابيين، هم مجاهدوخلق، على موته المفاجئ.

تم تسليم جثة ديباجي قبل ساعتين فقط من جنازته، وحتى عندئذ لم يكن يُسمح للعائلة بفتح التابوت. إن هذا الخادم البطل لله كان على استعداد لأن يضع حياته منذ البداية، تركته زوجته خلال سنوات احتجازه، وعانى أطفاله الأربعة عناءً مزدوجاً ـ أولاً فقدوا والدهم الذي تبناهم، هايك، والآن فقدوا والدهم. ولكن مثل أطفال هوفيزبيان، فقد ساروا على نهج والدهم وظلوا يخدمون الرب.

بعد أيام قليلة من موت مهدي ديباجي، ضُرب الراعي مايكيليان بالرصاص وقُتل، تاركاً زوجته، جوليت، وثلاثة أبناء بالغين. لقد قضي قائد آخر. خلف الراعي مايكيليان هايك كرئيس لمجلس الرعاة البروتستانت في إيران. وبعد 5 شهور فقط من توليه هذه المسئولية، دفع حياته ثمناً لها. إن زوجته تعيش الآن في كاليفورنيا، مع واحدة من بناتها المتزوجات.

في 28 سبتمبر سنة 1996، اهتز المجتمع المسيحي في كل أنحاء العالم مرة أخرى جسد الراعي رافاباكهش يوسيفي (Ravanbakhsh Yousefi) وُجد مُعلقاً من شجرة على بُعد حوالي 20 ميلاً من منزله في جهايمشهر. كان قد ترك منزله مبكراً في ذلك اليوم ليقضي وقتاً في الصلاة والتأمل. لقد وضع خادم مسيحي آخر حياته في إيران. وأصبحت هناك أرملة أخرى اسمها أختار (Akhtar)، تواجه الآن الحياة وحدها مع طفلين صغيرين.

إن الموت المفاجئ للزوج قد عصف بحياة "أختار". واليوم، مثل تاكوش، فهي تمشي الطريق الطويل للحزن، وهي تتغلب على ألمها خطة بخطوة. في كل يوم الساعة الثالثة، تزور تاكوش أختار. إنها تفهم ما تجتاز فيه أختار أكثر من أي شخص آخر.

إن المسيحيين في أنحاء العالم يصلّون كثيراً لأجل إخوتهم وأخواتهم في إيران، ونحن يجب علينا أن نفعل ذلك. إن هؤلاء المؤمنين المخلصين يواجهون أشد أنواع الاضطهادات على الأرض.

ولكن أحد الرعاة من ذلك البلد، زار الولايات المتحدة، قال لنا مؤخراً: "أنتم تصلّون لأجلنا، ولكن ربما تكونون بحاجة إلى صلواتنا أكثر، نحن لا نستطيع أن نبتعد بعيداً عن يسوع. نحن نريده كثيراً لأجل كل صغيرة وكبيرة في حياتنا حتى أننا يجب أنا نبقى قريبين منه. إنه أمر حياة أو موت بالنسبة لنا".

إن أمر الحياة أو الموت – الإيمان بالرب يسوع المسيح ـ قد اُختبر وجُرب في قلوب تاكوش وأطفالها. إنهم لا يزالون يقدِّرون صلواتنا لأجل شفاء الجروح، والحكمة والإرشاد. إنهم يعيشون في كاليفورنيا الآن، ولكن التعامل مع الماضي والتحرك بشجاعة نحو المستقبل لا يزالان يمثلان تحدياً بالنسبة لهم.

ولكن هناك شيء واحد لن يتغير. ما كتبه بولس إلى المسيحيين في فيلبي، لا شك يقوله إلى عائلة هوفيزبيان وكل الزوجات والأطفال الآخرين الذين فقدوا أحبائهم في إيران: "إن الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحاً يُكمل إلى يوم يسوع المسيح" (في 1: 6).

تأمل ومناقشة

1. ما هي بعض الحقائق الاجتماعية والدينية الأساسية التي تؤثر على العاملين المسيحيين في الشرق الأوسط؟
2. كيف يمكن للضغوط أن تكون مختلفة بالنسبة للرعاة الوطنيين عنه بالنسبة للعاملين المغتربين؟
3. ما هي بعض المقولات الأساسية عن الشرق الأوسط؟ كيف يمكن تغيير هذه؟
4. أي جوانب القصص في الحالات الميدانية قد أثَّرت عليك أكثر ما يكون ولماذا؟
5. اكتب قائمة ببعض الأشياء العملية التي يمكن أن تُعمل لمساعدة المسيحيين على مواجهة الاضطهاد من أجل إيمانهم في الشرق الأوسط؟